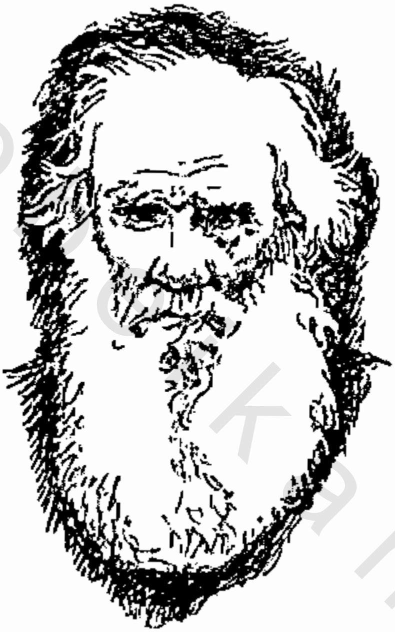

الحلقة الثانية عشرة

ليو تولستوي

ob.kandl.com

نجم هذه السطور.. هو الكاتب الأديب، والروائي القاص، والمفكر الروسي، والفيلسوف الإنساني الكبير: ليو تولستوي.. صاحب رائعتي: «الحرب والسلام» و«أنّا كرنينا».. اللتان لا يدانيهما قيمة وشهرة إلا قلة قليلة من الأعمال الروائية على مستوى العالم بأسره، وهو وإن كان من أدباء القرن التاسع عشر بالولادة.. إلا أنه أحد أبرز أدباء القرن العشرين ليس بوفاته قبيل الحرب العالمية الأولى ولكن بانتشار ترجمات أعماله إلى اللغات الحية، كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية في الثلث الأول من القرن العشرين، ثم بترجمتها إلى اللغة العربية في أربعينياته وخمسينياته ليتلقفها سواد المثقفين العرب العطشى لمثل هذه الروائع والتي كانت لا تعرفها إلا قلة ممن اطلعوا عليها في ترجماتها الإنجليزية أو الفرنسية.. أما الأكثرية منهم، فلم يتح لهم الاطلاع عليها إلا بعد انتشار ترجماتها إلى العربية.. في أعقاب الحرب العالمية الثانية، حيث كان لدور النشر اللبنانية الفضل الأول في ترجمة تلك الأعمال وطباعتها وتيسيرها لأجيال القراء في أرجاء الوطن العربي كله.. التي خرجت بعد الحرب وانحسار المد الاستعماري عنها.. وهي

تريد أن تتطلع وتقرأ لتتعرف على أدب وأدباء الشعوب الأخرى، بمن فيهم تلك التي استعمرتهم.. وسامتهم سوء العذاب، حتى قال القائلون في أواخر الستينات من القرن الماضي بعد أن امتد نشاط دور النشر اللبنانية من الترجمات.. إلى غيرها إجمالاً: إن القاهرة تكتب.. وبيروت تطبع.. وبغداد تقرأ..!! مع «الفاتحة» على «بغداد».. التي كانت تقرأ..!

* * *

إن قصة حياة «تولستوي» كـ «أعماله».. تتسمان بقدر فريد من الغزارة والإنسانية والعظمة، فقد كتب كثيراً وطويلاً.. بامتداد سنوات حياته : المقالة والقصة والرواية والمسرحية.. وإلى أن وافاه أجله في الرابعة والثمانين من عمره وهو يختتم آخر أعماله بـ «مسرحية: الجنة الحية».. ترسيخاً لانتفاضته الروحية التي أعادته إلى منابع الإيمان بعد أن بلغ الخمسين، وأخذ يعيد أسئلته: «ما هي الحياة؟ ولماذا يجب عليَّ أن أعيش؟ لماذا يجب عليَّ أن أفعل أي شيء؟ هل هناك أي معنى في الحياة يمكن أن يقهر الموت الذي لا يمكن تجنبه»..؟ إنها نفس الأسئلة التي جاءت على لسان بطله في رواية «الحرب والسلام»: بيتر بيزوكوف.. عندما كتبها وهو في السابعة والثلاثين من عمره مصوراً بشاعة حروب نابليون والثلوج التي قهرت جنوده البائسين، لكنها هذه المرة.. وبعد أن بلغ الخمسين عادت به إلى الإيمان وإلى اعتناق مبدأ «المقاومة السلبية» للشر، الذي شكل كفاحه – من أجلها – نقطة قلق كبرى

في حياته، قامت عليه فلسفته فيما بعد، والتي سجلها تفصيلاً في كتابه «اعترافات»، ورواها عنه «إيلمر موذ» عندما كتب: «حياة تولستوي».

ولكن قبل «الحرب والسلام».. وقبل »الاعترافات»، كان تولستوي وبتلك الغزارة في إنتاجه.. قد كتب عن «طفولته» وهو في الرابعة والعشرين، وعن «صباه» وهو في السادسة والعشرين، وعن «شبابه» وهو في التاسعة والعشرين.. ثم كتب بعد كل ذلك رائعته الخالدة «أنا كرنينا»، التي أذهلتني عند قراءتها.. بعد أن بقيت في مكتبتي بعض الوقت دون قراءة، فلم أكن أتصور أنها جميلة إلى هذا الحد.. رائعة إلى هذا المدى، فقد كانت أدباً رفيعاً.. وتصويراً باذخاً لحياة «أنا كرنينا» وصراعات مجتمع مدينتها «بطرسبرج».. مدينة الثقافة والفنون الفارهة، التي تصارع على شرف نسبتها إليه كل من «لينين» عندما أسماها «لينينجراد».. فـ «ستالين» الذي خلفه عندما أسماها بعد ذلك «ستالينجراد» لتعود إلى اسمها القيصري القديم بعد سقوط الاتحاد السوفييتي: «بطرسبرج»، إنها بحق.. رواية.. تفضل كثيراً أميز الروايات وأهمها.. لتقف إلى جانب رواية «مدام بوفاري» التي كتبها الأديب الفرنسي الرائع: جوستاف فلوبير عام ١٨٥٧م.. فمنحته بعدها لقب: «رائد» الواقعية في الرواية.

* * *

لقد كان للسينما الأمريكية في عهدها الجميل فضل تقديم هاتين الرائعتين: «الحرب والسلام».. و«أنّا كرنينا».. على الشاشة

الفضية ليراها العالم كله بأمييه، وأنصاف وأرباع متعلميه دون أن تثنيها عن تقديمهما الاختلافات العقائدية مع المعسكر الاشتراكي أو طول رواية «الحرب والسلام»، الذي ابتكرت له حلاً بارعاً.. وذلك بوضع استراحة في منتصف العرض الذي أذكر أنه كان يمتد لثلاث ساعات.

وبقدر إنتاج تولستوي الأدبي اللامع والكثيف الذي أبهر وأمتع الملايين من القراء.. فقد كان له إنتاج فكري وفلسفي آخر.. تداخل مع سنوات حياته وفكره الفلسفي الذي كان يتطور زمناً.. بعد زمن، وكان أشد وضوحاً بعد (منعطف التحول) في حياته عندما بلغ الخمسين من عمره.. فكان تعبيراً لصيقاً بها، له من جوانب العظمة الإنسانية البالغة في إيثارها وتضحياتها.. بأكثر مما هو عليه، وإن أخذ عليه بعض نقاده ما جاء في مقاله «ما الفن».. دون الرجوع إلى ماضيه، وإلى أيامه الأولى، فقد ولد تولستوي.. لأبوين من «النبلاء»، وتربى في بيت «منيف».. وسط إقطاعية من الأراضي يعمل فيها عشرات الفلاحين، ثم مات أبواه.. على التوالي وهو دون التاسعة من عمره فعاش حرقة اليتم رغم رفاه العيش من حوله.. الذي أدى به فيما أدى إلى الفشل في دراسته الجامعية، وهو ما جعله يلتحق بـ «الجيش» وهو في عامه الثالث والعشرين.. ليحارب في القوقاز، وليدافع عن مدينة «سباستبول» القيصرية إلا أنه لم ينس أولئك الفلاحين المعدَمين الذين عاش معهم وبجوارهم عندما حاول افتتاح مدرسة لتعليمهم.. ولكنه لم ينجح، ليعاود محاولته مرة ثانية بعد أن ترك الجيش.. حتى

يتمكن أولئك الفلاحين بالعلم والمعرفة من استرداد إنسانيتهم وكرامتهم.. فلم يتحقق له ذلك، ليتزوج وهو في الرابعة والثلاثين.. وليعيش حياته الناعمة لخمسة عشر عاماً أنجب خلالها عدداً من الأبناء والبنات، وقد كان يمكن له أن يمضي في تلك الحياة الناعمة دون أن ينغص عليه أي منغص، ولكن وجدانه الحي وعقله الكبير.. أخذا يلحان عليه بتلك الأسئلة التي عاودته عن «الحياة» و«الموت».. ليكتب خلاصة فلسفته في كتاب شديد التركيز جاء بعنوان: «ما أؤمن به».. ثم ليبكي بعد ذلك على موت أحد الفلاحين في قصته الحزينة الدامعة: «موت إيڤان إليتش».

* * *

عندما بلغ تولستوي الثمانين من عمره في ختام العقد الأول من القرن العشرين كانت روسيا القيصرية كلها تحتفل بعيد ميلاده.. فقد أصبح علماً وهرماً متكامل البناء: بالغ الضخامة في إنتاجه.. بالغ العظمة في إنسانيته، وكان طبيعياً أن يشارك رموز الفكر والفلسفة والأدب في العالم.. في تلك المناسبة الرفيعة، ليبرق له «المهاتما غاندي» الذي سيحرر الهند بعد ثلاثين عاماً بـ «المقاومة السلبية» التي دعا إليها تولستوي للانتصار بها على الشر: مهنئاً.. وقائلاً له في عذوبة بالغة: «أبلغ المائة.. يا حبيبي».

لكن براكين «تولستوي» الإنسانية.. كانت وكأنها تستعد للحظات انفجارها القادمة عندما أخذ يدعو بعد عامين جموع الفلاحين إلى بيته المنيف، ليقدم لهم ذات الطعام الذي يأكل منه.. وليتباسط

obeikandi.com

معهم وكأنهم أنداده.. ويلهو مع أبنائهم وكأنهم أبناءه، ثم ليقوم بعد ذلك بتوزيع أراضيه عليهم.. لتثور ثائرة زوجته عليه فينضم إليها أبناؤه وبناته ماعدا صغرى بناته «اليكسندرا». التي صحبته يوم أن قرر الرحيل عن بيته المنيف بأثاثه ورياشه وثرياته.. إلى غرفة متواضعة من غرف محطة السكة الحديد، ليداهمه المرض نتيجة هذا التغيير الذي لم تقو عليه شيخوخته.. ليموت وحيداً إلا من ابنته «اليكسندرا» التي أحبته أباً، وتعلقت به مبدعاً، وآمنت به مفكراً وإنساناً.. قل نظيره، ويترك خلفه أعمالاً لن تنمحي.. وحياة لن تنسى عبر القرون.

openkandl.com